الهويّة والتّنوع الثّقافي في الجزائر من منظور السيّاسة اللّغويّة

Identity and Cultural Diversity in Algeria: The Perspective of Language Policy

أ. كمال عسلوني[1]

د. بوبكر الصديق صابري[2]

تاريخ الاستلام: 2021.04.10 تاريخ القبـول: 2021.07.02

ملخّص: يعدّ التّنوع اللّغوي والثّقافي ظاهرة عامة في مجتمعات العالم، لاسيّما الجزائر التي تحظى بخصوصيّة ثقافيّة متميزة مشكّلة رصيدا ثريا يستوجب من صناع القرار رعايته والمحافظة عليه. ويتمظهر هذا التّنوع في اللّغة والدّين والتّاريخ والعادات وغيرها، والتي تجسد بدورها دعائم إرساء الهويّة الوطنيّة. وتلعب اللّغة في ذلك دورا بارزا باعتبارها إحدى مقومات الهويّة، مما جعل الدّولة الجزائريّة تتبنى مساعي عديدة في تخطيطها وسياستها اللّغوية من أجل المحافظة على هذا التّنوع من المخاطر. تهدف ورقتنا البحثيّة إلى الوقوف على أهميّة التّخطيط اللّغوي ودوره في ترسيخ الهويّة، ومدى فاعليته في تحقيق التّماسك الثّقافي للمجتمع الجزائري ضمن إطار التّنوع الثّقافي واللّغوي.

كلمات مفتاحية: التّخطيط اللّغوي؛ السياسة اللّغوية؛ التّعدد اللّغوي؛ الهويّة؛ الثّقافة.

Abstract: Linguistic and cultural diversity is a recurrent phenomenon in world societies. In Algeria, the linguistic and cultural landscape enjoys a distinct cultural specificity, constituting a rich asset that should be nurtured and preserved by decision-makers and takers. This diversity is manifested in language, religion, history, customs, etc. This diversity in turn embodies the pillar for national identity. Nonetheless, language plays a prominent role in this fabric and one of the main components of national identity. In this regard,the Algerian state has adopted many endeavors in its linguistic policy in order to preserve this diversity and unity.

Our research paper aims to identify the importance of linguistic planning and language policy and their role in consolidating identity on the one hand, andtheir effectiveness in achieving cultural cohesion in the Algerian society on the other.

Keywords: Language Planning; Language policy; multilingualism; identity; culture.

[1] - جامعة برج بوعريريج، الجزائر.

البريد الإلكتروني: kamal.asslouni@univ-bba.dz (المؤلّف المرسل)

2- جامعة برج بوعريريج، الجزائر.

البريد الإلكتروني: sabribob34@yahoo.fr

1. مقدّمة: لم تعد اللّغة مجرد أداة للتّواصل فحسب، بل تجاوزت هذا المفهوم لتصبح أداة معرفة وثقافة وسلطة، فهي رمز سيادة الدول وعنوان هوياتها وإحدى مقوماتها. وهي تتعلق بالحضارة والتاريخ مشكّلة حمولة معرفيّة مسهمة في الكشف عن ثقافات الأمم وسبل ازدهارها وتطورها.

والمتأمل في تاريخ الجزائر وسائر بلدان المغرب العربي يلمس تعاقب أجناس مختلفة، وتفاعل حضارات عريقة على أرضها كوّنت جملة من الثقافات المتنوعة، وتعرضها بعد ذلك إلى الاستعمار الفرنسي مما أفرز مشهدا لغويا تتشكل معالمه من: اللّغة العربيّة واللّغة الأمازيغيّة باعتبارهما لغتان رسميتان، اللغة العامية التي أضحت تزاحم العربية الفصحى في وسائل الإعلام والإشهار، وفي الشوارع وفي واجهات المحلات والمقاهي والأماكن العامة، واللغة الفرنسية الموروثة عن الاستعمار والتي مازالت تهدد العربية في الإدارات ووسائل الإعلام وفي المؤسسات الحكومية، إضافة إلى ظهور لغات أجنبية أخرى كاللغة الإنكليزية وغيرها.

وأمام هذا الوضع اللّغوي وما أفرزته سياسة المستدمر من مشاكل أثّرت بشكل كبير على الهوية الوطنية، دفع بالدولة ألا تبقى مكتوفة الأيدي، ولتسليط الضوء على الواقع اللغوي والثقافي في الجزائر، وتعامل السلطة معه في تحقيق التعايش اللغوي والثقافي، فالإجابة على الإشكالية الآتية تنتصب ضرورة، وهي: ما حدود العلاقة بين اللّغة والهوية والثقافة في سياسة الدولة الجزائرية؟ وهل استطاعت السلطة وضع سياسة لغوية تنظم التعدد اللّغوي والتّنوع الثقافي الحاصلين في المجتمع وتكفل الحفاظ على هويتها؟

2. الإطار المفاهيمي للهوية والثقافة والسياسة اللّغوية

1.2.الهوية: لغة: الهوية تعني طبيعة الشيء وكنهه وأصله، وهي مصدر صناعي مركب من(هو) ضمير المفرد الغائب المعرّف بأداة التعريف(ال) ومن اللاحقة المتمثلة في الياء المشددة وعلامة التأنيث أي(ة) (البوني 1983). وهذا المصطلح من أصل لاتيني فهو يقابل كلمة (Identity) بالإنكليزية. وقد جاء في معجم الصحاح: هوى بالفتح يهوي هويّا، أي سقط إلى أسفل.. والهوّة: الوهدة العميقة (الجوهري، 2009).

وإذا بحثنا في المعاجم العربية القديمة لا نجد إشارة إلى مفهوم الهويّة إلا من خلال معنى السقوط سواء بفتح الهاء أو ضمها.

اصطلاحا: يعرّف الجرجاني الهويّة بقوله: "الهويّة عند بعضهم هي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق" (مناصرة، 2014). فقد تناول الجرجاني مفهوم الهوية من وجهة نظر فلسفية ودينية، واعتبر الهوية ذات الإنسان ومصدر أفعاله وسلوكاته، وبها يعرف جوهره وحقيقته.

وهناك من يرى أن الهوية متغيرة غير ثابتة، ونسبية غير مطلقة. فهي تتصف بالتطور والتحول، وهذا ما ذهب إليه حليم بركات حينما قال عن الهوية: "إنها كينونة مستمرة شكلا ومضمونا، ومن حيث علاقتها بذاتها وبالآخر" (مناصرة، 2014). فقد نجد عناصر جديدة يمكن إضافتها للهوية وتقبّلها على أنها إثراء وإنماء للهوية لا إضعاف وهدم لها، وينبغي أن نؤكد هنا أنّ هناك أشياء ثابتة في الهوية يصعب تغييرها كالدين أو اللّغة، وهناك أبعاد يمكن تعزيز الهوية بها تمشيًا مع الواقع، وما يصحب ذلك من تغيرات تميّز جيلا عن آخر فكرا وتوجها في الحياة ولعل هذا ما يسهم في تعقيد مفهوم المصطلح.

وازداد قلق الكثير من الباحثين في الأوساط الفكرية في سؤالهم عن الهوية التي تعرف بانفتاحها وتنوع مجالات اهتمامها، فالهوية" مفهوم أنطولوجي وجودي يمتلك خاصيّة سحرية تؤهله للظهور في مختلف المقولات المعرفية. وهو يتمتع بدرجة عالية من العمومية والتجريد تفوق مختلف المفاهيم الأخرى المجانسة والمقابلة له" (زاهر، 2017). إذ يصعب فعلا إيجاد تعريف جامع للهوية، ويعتبره الكثير موضوعا غامضا لأنه من القضايا التي تتقاطع فيها عدة تخصصات كالسياسة والاجتماع والنفس والفلسفة وغيرها.

ويبقى التعريف الواقعي الحقيقي متناثرا في(الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) الذي صدر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 1948م، والذي يتحدث عن العناصر التالية في هوية الشخص أو الفرد أو الإنسان، سواء أكان ذكرا أم أنثى:(العنصر، واللّون، والجنس، واللّغة، والدّين، والرأي، والأصل الوطني، والأصل الاجتماعي والثروة، والمولد، والوضع السياسي، والوضع القانوني، والوضع الدولي للبلد أو الإقليم الذي ينتمي إليه الشخص سواء أكان مستقلا أو موضوعا تحت الوصاية، أم غير متمتع بالحكم الذاتي، أم خاضعا لأي قيد آخر على سيادته) (مناصرة، 2014). فالهوية ليست اسما أم لقبا أو بطاقة تعريف شخصية، إنها دائرة من عناصر وعوامل تشكّل جوهر الفرد وعنوان وجوده.

ويمكننا الحديث عن المراحل التي مر بها ظهور مصطلح الهوية، فأول نوع من الهويات هو المفهوم الإغريقي عن "المواطنة في أثينا" (زاهر، 2017)، ورأى أنها هوية فردية تناقض هوية الدولة. وقد تطابقت الهوية في أول الأمر مع الذات، ثم تطور استخدامه على يد "إريك إريكسون" الذي ربطه بإحساس الفرد بنفسه بوصفه "هوية فردية" تتميز ككيان عن الآخرين، كما صاغ مفهوم هوية الأنا (زاهر، 2017). ثم حدث الانتقال الجذري لتصبح الهوية مفهوما اجتماعيا له علاقة بالتاريخ. وتحددت معالم الهوية والعناصر المشكلة لها في مقدمتها اللغة والأسرة والعقيدة والمدرسة والمؤسسات الإعلامية والخبرات الشخصية وغيرها. وكلما جرى ذكر الهوية الآن على لسان إلاّ وتتبادر إلى الأذهان هوية مجتمع أو أمة، تتشكل من تاريخها ولغتها ودينها وغيرها مما يعدّ ركائز أساسية لأيّ شعب من الشعوب.

علاقة الهويّة باللّغة: الحديث عن اللغة حديث عن الهوية، وبينهما علاقة وطيدة لا نذكر أحدهما بدون الآخر نظرا إلى أن اللغة أحد العوامل الرئيسة المحددة للهوية الفردية أو الجماعية، كما تعتبر معلما مركزيا في هوية الإنسان.

ونستشهد بوجهات النظر المعاصرة في علم اللغة الاجتماعي والأنثروبولوجيا التي تؤكد أن الهوية الدينية والوطنية والعرقية تتشكل باللغة، وتتشكل بها اللّغة. واللغة العربية لها خصوصيّة فريدة عند أهلها، لأنها الوعاء الحافظ لتاريخ العرب وتراثهم، وهي لغة كتاب الله الذي أنزله على رسوله بلسان عربي مبين، ولذلك تكتسب العربية قدسيتها في قلوب الملايين من المسلمين من قدسية القرآن الكريم الذي يمثل دستور حياتهم ومرجعيتهم في كل شؤونهم الدنيوية والأخروية (بركة، 2013). وقد جرت العادة إلى ذكر الهوية مع اللغة في عبارة تركيبية واحدة ولو فصّلنا في القول لألفينا تباينا في تعريف وبيان جوهر كلّ منهما. وهو ما يؤكده "المسدي" حين وقف على جانب مهم من الفروق بين اللغة والهوية، "فاللغة ظاهرة اجتماعية، وهي اصطلاحية بامتياز، تستند إلى مكونين متلازمين، مكون مادي حسي ومكون ذهني غير مادي، أما الهوية فظاهرة رمزية مجردة ليس لها أي تحقق مادي يربطها بعوالم الحس الوجودية. الهوية انتماء بينما اللغة اكتساب، والهوية نتوارثها وليس في اللغة_أصواتها وألفاظها ودلالاتها_شيء ينقله الوليد عن أمه أو أبيه لمجرد أنهما أمه وأبوه. فلا أثر للغة في الخزينة الوراثية ولا في شفرة حاملها" (المسدي، 2014). ورغم محاولة المسدي التفريق بين اللغة والهوية، إلا أن التقاطع بينهما أوثق، فالبحث في الهوية لابد أن يمرّ على جسر اللغة، لأنّ "الهوية مسألة لغوية في جذورها، ولذلك تفهم ظاهرة الهوية بوصفها ظاهرة لغوية" (جوزيف، 2007).

الثقافة واللّغة: لا ننكر ما للغة من ترابط وثيق مع الثقافة إن لم أقل أنها لسانها الناطق بها، فلا يمكن معرفة ثقافة مجتمع ما إلا باللغة، واللغة لا تفهم ألفاظها ودلالاتها إلا إذا صاحب ذلك دراية ببنية المجتمع الثقافية. إذ "أن اللغة نظام من العلامات نعده ذا قيمة ثقافية لأن المتحدثين يعبرون عن هويتهم وهوية الآخرين من خلال استخدامهم لها. فهم يرون أن استخدامهم للغتهم رمز لهويتهم الاجتماعية، ومنع استخدامها رفض لهويتهم الاجتماعية وثقافتهم. وعليه يمكننا القول: إن اللغة ترمز إلى واقع ثقافي" (كرامش، 2010). وهنا تكمن الصلة بين اللّغة التي يتحدث بها مجموعة من الأفراد ضمن جماعات لغوية يعبرون من خلالها عن هويتهم تبعا لممارساتهم الثقافيّة ومعاملاتهم المشتركة.

ولكن لا يمكن أن نحصر ذلك في ثقافة مشتركة واحدة، فالتنوع الثقافي في حقيقته يضم جماعات متنوعة ثقافيا وترى "بريان باري" أن "التّنوع الثقافي ذو مؤشرات متأصلة في بنية أي مجتمع، وهي تلقى بدوام اعترافا اجتماعيا إذ يعتبر الفرق بين الذكر والأنثى لبنة البناء الأساسية في التنظيم الاجتماعي في كل مكان" (الزهراء و آخرون 2019).

كما يعني التّنوع الثقافي "الاحتفال بالثقافات المختلفة الكثيرة في مجتمعنا التي يعبر عنها من خلال اللّغات والديانات والتّقاليد واللّباس والفنون والرقص وأسلوب الحياة، كما أنه يتضمن ويعترف بحق الجميع في التّمتع بتراثهم الثقافي. والحق في المساواة والمعاملة والفرص لكل فرد بصرف النظر عن خلفيتهم الثقافية أو الدينية أو اللغوية أو العرقية" (الزهراء و آخرون، 2019). فالتنوع يقر بالاختلاف لكنه لا ينفي الوحدة والانسجام داخل الجماعات الثقافية والقائمة على مبدأ التعايش والاحترام والحوار والتسامح. وتسعى في سبيل ذلك الدولة إلى صهر ذلك في بوتقة واحدة من أجل الحفاظ على الحريات ودعم الاستقرار السياسي والاجتماعي.

2.2 السياسة اللّغوية: لغة: في المعاجم العربية، مصدر ساس يسوس سياسة، ومادته "سوس"، سست الرعية سياسة: أمرتها ونهيتها. وفلان مجرّب قد ساس وسيس عليه (الفيروزابادي، 1987).

أما في المعاجم الغربية، فيرجع استخدام مصطلح السياسة إلى مصطلح "بوليتيك" المشتق من الكلمات اليونانية التالية (دربال، 2014):

-بوليس: البلدة، المدينة، المقاطعة، أو: أيضا تجمع السكان الذين يؤلفون المدينة.

-بوليتايا: الدولة، الدستور، النظام السياسي، الجمهورية، المواطنة (بمعنى حقوق المواطنين).

-بوليتيكا: جمع بوليتيكوس: الأمور السياسية، الأمور المدنية، كل ما تعلق بالدولة، وبالدستور، وبالنظام السياسي، وبالسيادة.

اصطلاحا: تعرف السياسة بأنها: "رعاية شؤون الدولة الداخلية والخارجية...وتعبر السياسة عن عملية صنع قرارات ملزمة لكل المجتمع تتناول قيما مادية ومعنوية وترمز لمطالب وضغوط، وتتم عن طريق تحقيق أهداف ضمن خطط أفراد وجماعات ومؤسسات ونخب حسب إيديولوجيا معينة على مستوى محلي أو إقليمي أودولي" (الدعدي 2013).

أما السياسة اللّغوية فيقصد بها "القوانين الرسمية التي تخطط لتهيئة لغة معينة في مجتمعات متعددة اللّغات فتجعل من لغة معينة لغة رسمية بقوة القانون والدستور" (عزوز و خاين، 2014). والسياسة اللغوية نشاط ممنهج تمارسه الدولة لتنظيم الشأن اللغوي في البلاد، وتحديد وظائف ومجالات استعمال كل لغة وطنية كانت أو أجنبية (القاسمي، 2015). ويقوم هذا النشاط على التخطيط اللغوي غير أنه لا يقف عنده، بل يتعداه إلى التطبيق والتنفيذ عن طريق إصدار مجموعة من القوانين أو إنشاء المؤسسات.

ويرى علماء اللسانيات الاجتماعية الفرنسيون أن السياسة اللّغوية تشتمل على التّخطيط اللّغوي والتدبير اللّغوي في حين يستخدم المختصون الأمريكيون مصطلحي السياسة اللّغوية والتّخطيط اللّغوي بوصفهما مترادفين (القاسمي 2015). لكن توصف العلاقة بينهما بأنها علاقة النّظرية بالتطبيق العملي.

وتهدف **السياسة اللّغوية:** إلى إحياء لغة ميتة أو جعل لغة ما لغة رسمية، وإذا أجرينا مسحا لكتابات اللّسانيين العرب حول السياسة اللّغوية التي ينبغي أن تتبناها البلدان العربيّة، نجد أن الأهداف المقترحة هي (القاسمي 2015):

_صيانة اللّغة العربيّة الفصيحة المشتركة وتنميتها لتكون أداة فاعلة في اكتساب المعرفة ووسيلة لترسيخ الهوية الوطنية والتكامل العربي، وتعميم استعمالها في وسائل الإعلام والتعليم والمؤسسات الحكومية وغيرها؛

_المحافظة على اللغات الوطنية في البلدان العربية، كالآشورية في العراق، والسريانية في سوريا، والأمازيغية في بلدان المغرب العربي باعتبارها روافد للثقافة العربية المشتركة؛

_العناية بتعليم اللغات الأجنبية، وترقية عملية الترجمة من تلك اللغات إلى اللّغة العربيّة، ومن العربيّة إلى لغات أجنبية أخرى، باعتبار هذه اللغات نوافذ على العالم للتبادل الثقافي والعلمي.

وليس غريبا أن نربط الهوية ومقوماتها بالسياسة اللغوية، فإذا عدنا إلى تاريخ نشأة مصطلح التخطيط اللّغوي نجد أن سبب ظهوره هو حل مشكلات لغوية في بلد النرويج من أجل بناء هوية وطنية بعد قرون من الهيمنة الدانماركية، وكان ذلك عام 1959م على يد إينار هوجن (كالفي، 2008).

3.السياسة اللّغوية في الجزائر وأبعاد الهويّة الوطنيّة: إن المجتمع الجزائري مجتمع متنوع الثقافات واللّغات وتتشكل عناصر هويته من ثلاثة أبعاد رئيسية ذكرها الدكتور صالح بلعيد: البعد الإسلامي، البعد العربي والبعد الأمازيغي (مناصرة، 2014). ولعل الهوية تتمركز حول الدين، والعرق، واللغة، والثقافة، والتاريخ المشترك. هذه الهوية التي حاول الاستعمار طمسها بشتى الأشكال طيلة سنوات عديدة غير أن الجزائريين لم يسمحوا ولن يسمحوا بأي حال من الأحوال أن تمحى هويتهم لصالح هوية من قام باحتلالهم. وقبل الخوض في عناصر الهوية الوطنية علينا أن نقف أولا عند السياسة الاستعمارية في الجزائر في فترة الاحتلال.

1.3السياسة الاستعمارية وأثرها على الهوية والثقافة: لقد مارس الاستعمار الفرنسي طقوسه على الجزائريين خاصة ما تعلق بنظامه التربوي والتعليمي الذي قام بفرضه بالقوة، هذا النظام الذي حاول تجريد الجزائريين من هويتهم القائمة على مبادئ الإسلام الدينية واللغة العربية؛ إذ حرص على القضاء على الأسس الدينية التي كان يبنى عليها التعليم منها المدارس القرآنية والمساجد والكتاتيب وغيرها. وقد "كان هذا التراث الثقافي في الجزائر أحد أهداف المستعمر الأساسية. وترجم عمل تبديد الشخصية الذي قام به بإقفال المساجد، والمدارس، التي يتم التعليم فيها بالعربية. كما دمّرت الزوايا باعتبارها مراكز ثقافة، ومقاومة، وحوّلت تلك التي حوفظ عليها إلى مراكز تعاون وقصر التعليم فيها على قراءة القرآن" (قيطوط، 2017). إضافة إلى محاولات التنصير وتحويل المساجد إلى كنائس، ولم يقف الفرنسيون عند هذا الحد، بل كان هدفهم جعل الجزائر فرنسية.

وقد ظهر في ذلك الوقت موقفان متباينان للجزائريين من الإدارة الفرنسية، فهناك من فهم أن دخوله للمدرسة الفرنسية وتعلمه فيها يعتبر وسيلة لفهم اللغة الأجنبية وتحقيق التواصل، مما يمنحه فرصة لاستعمالها ضد الفرنسيين فيما بعد. وتوجّه آخر يرى أنه لا بديل له عن ثوابته الوطنية، وعن عناصر هويته التي لن يفرّط فيها أو يستبدلها وقد تشبّع بثقافة عربية إسلامية. وسيلتقي هذان التوجهان حديثا في المجتمع الجزائري ليمثلا قطبين متعارضين في موقفهما من الثقافة الفرنسية بين معرّب ومفرنس(قيطوط، 2017).

غير أننا لا نبخس جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تلك الفترة، فمن مصادر تلك الثقافة العربية الإسلامية ما بناه عبد الحميد بن باديس من مدارس لتعليم اللّغة العربيّة للأطفال، "ومن مجالاتها التربيّة الوطنيّة والدينية، إذ بلغ عددها مئة وخمسين مدرسة انتشرت في جميع البلاد، وكان شعارها: الإسلام ديني، والعربية لغتي والجزائر وطني" (قيطوط، 2017).

ليس هذا فقط، بل عمل الفرنسيون على تقسيم الجزائر من خلال مداعبة الأمازيغ واستغلال خصوصيتهم العرقية واللغوية لتجعل من ذلك وسيلة ضغط وتفريق، حتى "وجد الأمازيغ أنفسهم وسط مواجهة تتجاوزهم بين فرنسا المستعمرة التي تغازلهم، وبين القوميين الذين كانوا يشكّون في إسلامهم، بل في تعاونهم مع العدو" (قيطوط 2017).

2.3 أبعاد الهوية الوطنية: العلاقة بين اللغة والهوية علاقة وثيقة جدا يضاف إليها التاريخ المشترك، لكن لا ننكر ما للدين من رباط وثيق مع الهوية، وقد تجسدت بذلك أبعاد الهوية على الشكل الآتي:

البعد الإسلامي: رغم محاولات المستعمر القضاء على عقيدة الجزائريين وإبعادهم عن الإسلام ونظمه ومبادئه إلا أنّهم حافظوا على دينهم مدافعين عن قيّمه وتعاليمه بمعيّة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذين دأبوا جاهدين على الحفاظ على الشخصية الوطنية وعمادها الإسلام باستغلال الزوايا والمساجد والكتاتيب وبقية المراكز التي أنشئت لهذا الغرض.

وبعد الاستقلال، فقد نصّت العديد من الدساتير-إلى يومنا هذا-على أن الإسلام دين الدولة، و"سعت الدول الجزائرية بعد ذلك إلى محاولة دولنة الحقل الديني، من خلال هيكلة الحقل الديني، وجعله وظيفة إدارية وسياسية ضمن مهام الدولة، وتجسّد ذلك عن طريق إخضاع المساجد لرقابة الدولة وتسييرها" (الزهراء و آخرون، 2019).

وامتد اهتمام الدولة إلى سائر المؤسسات الدينية كالكتاتيب والزوايا، هذه الأخيرة التي أثبتت حضورها مؤخرا على الساحة السياسية، إذ تم توظيف العديد منها لأغراض سياسية خاصة مع تنامي ظاهرة العنف والإرهاب.

البعد العربي: يمكن اعتبار الواقع اللّغوي الجزائري وضعا معقدا بسبب التحديات التي تواجهها سياسة الدّولة اللغوية في ظل وجود لغتين رسميتين العربيّة والأمازيغيّة، ومزاحمة اللّغات العاميّة، إلى جانب طغيان استعمال اللّغات الأجنبية.

فالمتأمل في هذا الوضع اللغوي يرى انتشارا واسعا للغة المستعمر الفرنسية في الجامعات والمعاهد والإدارات ووسائل الإعلام وتعليمها في المدارس، مما يهدد اللغة العربية ويكون سببا بدوره في إحداث خلل في الهوية الوطنية للجزائريين. فاللغة الفرنسية هي أول لغة أجنبية في البلاد يتم التحدث بها واستخدامها في التدريس وفي الإدارة وفي المعاملات، ومن العوامل التي ساعدت على ذلك: الوجود الطويل للاستعمار الفرنسي، وسياساته التعليمية على مدى مئة وثلاثين عاما من الاستعمار، واعتبار الجزائر مقاطعة فرنسية. ويضاف إليها حديثا تلك الروابط الاجتماعية والثقافية القوية التي مازالت تجمع المهاجرين الجزائريين وذوي الجنسية المزدوجة بعائلاتهم وأقاربهم وأصدقائهم، مما جعل فرنسا الوجهة الأكثر شعبية للسياح الجزائريين. ناهيك عن تطور الاتصالات السلكية واللاسلكية وتوفر الأقمار الصناعية مما أتاح الفرصة لمشاهدة قنوات تلفزيونية فرنسية أو قنوات تتكلم اللغة الفرنسية على عمومها.

ولابد أن نقف عند التوتر الدائر بين التيار الفرانكفوني والتيار العربي، وهو يجسد في الحقيقة صراعا سياسيا وإيديولوجيا، "فدعاة العربية يرفضون اللغة الفرنسية لأنهم يريدون إحداث قطيعة مع الماضي الاستعماري حتى يتم ترسيخ الهوية الجزائرية بالحفاظ على الوحدة الوطنية من خلال اللغة العربية، أما النخبة الفرانكفونية أو كما يصفونها بحزب فرنسا، فيرون ضرورة الحفاظ على جميع اللغات بما فيها الفرنسية لأنها تمثل تراثا ثقافيا وتنوعا لغويا لا يهدد الوحدة الوطنية" (ahmed, 2020). ومهما يكن من أمر فإن الغزو الاستعماري وما تبعه من إجبارية تعلم اللغة الفرنسية لابد أن يصحبه وعي وإدراك بأهمية العناية باللغة العربية الأم، والنظر للثقافة الوطنية بمنظار التقدير والاحترام. وإن كان الاحتكاك الثقافي يتطلب إجادة اللغات الأجنبية فلا يعني إهمال اللغة الوطنية الأم.

واعتناءً بالعنصر المستهدف من المستعمر تبنت الدولة سياسة التعريب منذ الاستقلال، وأقرّت في دساتيرها إلى يومنا هذا أن اللغة العربية هي اللغة الوطنية والرسمية للبلاد.

البعد الأمازيغي: قبل الحديث عن وضع اللغة الأمازيغية وسياسة الدولة اتجاه هذه اللغة منذ الاستقلال، لابدّ أن نقف وقفة تاريخية عند الأمازيغ وبداياتهم.

فالمعروف تاريخيا أن "الأمازيغ أو البربر هم السكان الأصليون للجزائر وشمال إفريقيا، وهو اسم يطلق على من يتكلم الأمازيغية، وينتشرون في مساحة تمتد من واحة سيوة على مشارف مصر شرقا، حتى المحيط الأطلسي وجزر الكناري غربا، وعلى امتداد الصحراء الكبرى والساحل الإفريقي حتى موريتانيا ومالي والنيجر جنوبا" (القاسمي، 2015).

وقد اختلفت العديد من الآراء حول تاريخ سلالة البربر وأصلهم وموطنهم، فهناك من يعتبرهم السكان الأصليين لشمال إفريقيا وهناك من يفنّد ذلك. لكن الرأي الأرجح أنّ " بلاد البربرية هذه (تمازغا)، كما يسميها البعض أحيانا، كانت منذ ما قبل التاريخ، مسرح صراع مستمر، ومطمع غزاة متباينين، ومتتاليين، تركوا فيها جميعهم، من الفينيقيين إلى الأوروبيين، مرورا بالإغريق، والرومان، والفنداليين، والبيزنطيين، والعرب والعثمانيين، وبضعة آخرين، أثرا أيّا كان شأنه، لكن العرب هم من يستقرون فيها نهائيا، اعتبارا من القرن السابع الميلادي، ما ترتب عليه وجود لغة، هي العربية، ودين، هو الإسلام، وجودا دائما، منذ ذلك الحين" (قيطوط 2017). وبعد الفتح العربي لشمال إفريقيا عملوا على تعريب البربر وعلّموهم اللغة العربية وحفّظوهم القرآن وجعلوا دينهم الإسلام.

هذا تاريخيا، أما في الجزائر المستقلة لم تحظ الأمازيغية باهتمام كبير مما أفرز حركات ثقافية بربرية تدعو إلى إعادة الاعتبار للثقافة الأمازيغية، والاعتراف باللغة الأمازيغية. وقد شهد الوضع السياسي للبلاد توترات عنيفة لتلبية تلك المطالب؛ إذ من الصعب تصور البربر الجزائريين على أنهم أقلية في بلد له تاريخ كبير، فاللغة الأمازيغية يتحدث بها الكثير على نطاق واسع، وفي مواقع جغرافية مختلفة، منها ما تحظى بكثافة سكانية للأمازيغ. والأمازيغية أصناف كالقبائلية والشاوية والميزابية وغيرها. ومن باب العناية بالثقافة الأمازيغية تم تأسيس المحافظة السامية للأمازيغية سنة 1995م، من أجل تعزيز وتطوير الأمازيغية (الزهراء و آخرون، 2019)، وتم إطلاق دورات لخريجي اللغة والدراسات العليا في الأمازيغية من أجل تعليمها وإدراجها في النظام التعليمي كخطوة أولى لتعميمها في المستقبل.

وقد حققت اللغة الأمازيغية بعض مستويات الاعتراف الرسمي لها بدءا من القناة الإذاعية بالأمازيغية، إلى تقديم موجز لها بعد نشرة أخبار الواحدة زوالا والثامنة مساء على القناة التلفزيونية الوطنية، ثم أصبحت تقدم نشرة خاصة بالأخبار باللغة الأمازيغية على الساعة السادسة مساء. حتى تم اعتماد قناة خاصة لها في التلفزيون العمومي، كان ذلك سنة 2009م (القناة الأمازيغية، 2020). أما في الدستور الجزائري فقد تم اعتبار اللغة الأمازيغية لغة وطنية في دستور 2002م، ثم اعتبارها لغة وطنية ورسمية في دستور 2016م المعدل مما أثار ترحيبا واسعا لدى الأمازيغ (الزهراء و آخرون، 2019). وفي دستور 2020م، تم اعتمادها لغة وطنية ورسمية وجب تعميمها وتطويرها والعناية بها. وبقرار جمهوري سنة 2018م، أعطى رئيس الدولة عبد العزيز بوتفليقة بعض الحقوق الثقافية للسكان الأمازيغ باعتبار الثاني عشر من جانفي أو يناير(بداية التقويم الأمازيغي) عيدا وطنيا وجب الاحتفال به عبر أنحاء البلاد بدءا من العام نفسه.

وحاليا، لم يعد النقاش حول الأمازيغية: هل هي لغة أم لهجة، يطرح بشكل كبير في المنتديات الفكرية والعلمية؛ إذ يتفق المختصون على أن الأمازيغية لغة مستقلة تنقسم إلى عدة فروع ذكرناها سابقا.

4. خاتمة:

ومما سبق ذكره، فقد حاولت الدولة الجزائرية أن تدرج في سياستها اللغوية منذ الاستقلال عناصر الهوية الوطنية ومقوماتها بأبعادها الثلاثة: اللغة العربية، اللغة الأمازيغية والدين الإسلامي، جاهدة على العناية بثقافاتها المتعددة. لكن ينبغي أن نعترف أن أهم مشكلة تعترض مخططي اللغة هو تعيين لغة رسمية في مجتمع متعدد اللغات. ويمكن أن نوجز ما توصلنا إليه في النقاط الآتية:

- تعتبر اللغة إحدى الركائز الأساسية للهوية ووسيلة التعبير عن الثقافات، ومن الواضح أنها تلعب العديد من الأدوار المختلفة في الخطابات القومية والصراعات السياسية والاجتماعية؛

- إن السياسة اللغوية المنتهجة من طرف الدولة لابد أن تكون وثيقة الصلة بالسياسات الأخرى كالثقافية والتربوية والاقتصادية وغيرها حتى تضمن نجاعتها بتكاملها؛

- استثمار وسائل الإعلام في إحداث اللحمة بين أطياف المجتمع الجزائري على اختلاف مشاربه واتجاهاته؛

- ضرورة استغلال مؤسسات الدولة بما يحفظ لها هويتها وثقافتها ويساعد على حفظ أمنها الهوياتي واستقرارها؛

- التجسيد الفعلي لما تمليه سياسة الدولة اللغوية عبر مؤسساتها الحكومية.

وبذلك تكون الجزائر المستقلة قد اعتمدت سياسة لغوية متدرجة الأهداف والإجراءات لتحقيق الوثبة النوعية بما يضمن التعايش السلمي بين عناصر الهوية الوطنية وإحداث التماسك والانسجام بين ثقافاتها المختلفة، ليكون تنوعها مصدر قوة ولحمة توحّد الجميع من أجل مشروع وطني يشارك فيه الجميع دون إقصاء.

5. قائمة المراجع:

1. ahmed, h. (2020). Education for Citizenship in Algeria: A Study of Beliefs and Practices with Special Reference to English Curricula and Textbooks. algeria: university of algiers 2.
2. أحمد عزوز، و محمد خاين. (2014). العدالة اللغوية في المجتمع المغاربي (المجلد 1). الدوحة، قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
3. الجوهري. (2009). تاج اللغة وصحاح العربية. القاهرة: دار الحديث.
4. الفيروزابادي. (1987). القاموس المحيط. بيروت: مؤسسة الرسالة.
5. القناة الأمازيغية. (2020). تاريخ الاسترداد 22 جانفي، 2020، من ويكيبيديا الموسوعة الحرة.
6. المسدي. (2014). الهوية العربية والأمن اللغوي. الدوحة: المركز العربي للأ.

7. بسام بركة. (2013). اللغة والهوية في الوطن العربي. بيروت، لبنان: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
8. بلال دربال. (2014). السياسة اللغوية :المفهوم والآلية. المخبر.
9. جون جوزيف. (2007). اللغة والهوية. (عبد النور خرافي، المترجمون) الكويت: عالم المعرفة.
10. ضياء الدين زاهر. (2017). اللغة ومستقبل الهوية: التعليم أنموذجا. الاسكندرية، مصر: وحدة الدراسات المستقبلية.
11. عز الدين مناصرة. (2014). الهويات والتعددية الثقافية. عمان، الأردن: الصايل للنشر والتوزيع.
12. عفيف البوني. (نوفمبر، 1983). في الهوية القومية العربية. المستقبل العربي.
13. علي القاسمي. (2015). السياسة اللغوية وعلاقتها بالتخطيط التربوي والتنمية البشرية. الندوة الدولية: التخطيط والسياسة اللغوية. الرياض: مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللغة العربية.
14. كلير كرامش. (2010). اللغة والثقافة (المجلد 1). (أحمد الشيمي، المترجمون) قطر: وزارة الثقافة والفنون والتراث.
15. لويس جان كالفي. (2008). حرب اللغات والسياسات اللغوية (المجلد 1). (حسن حمزة، المترجمون) لبنان، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
16. مقبل بن عدي الدعدي. (2013). أثر السياسة في العربية: الأبجدية أنموذجا. مجلة الدراسات اللغوية.
17. ميشيل قيطوط. (2017). المشهد اللغوي وتعليم اللغات في المغرب العربي من النشأة إلى ايامنا (المجلد 1). (خالد محمد جهيمة المترجمون) ليبيا: الجامعة الأسمرية الإسلامية.
18. نسيسة فاطمة الزهراء، و آخرون. (2019). الأمن الهوياتي في ظل التنوع الثقافي اللغوي في الوطن العربي. قسنطينة: منشورات ألفا للوثائق.